المحاضــرة الأولى:

مفهوم الأسلوبيــة ومجالها /1

1- مفهوم الأسلوبية :

تفتح الأسلوبية للدارس مجالات واسعة في التعامل مع النص الأدبي وفهمه واكتشاف ما فيه من إبداع وتميز، ذلك أنها علم لغوي حديث يبحث في الوسائل اللغوية التي تكسب الخطاب خصائص الشعرية ، فتميزه عن غيره، وتتعدى مهمة تحديد الظاهرة إلى دراستها دراسة منهجية ، ويعد الأسلوب ظاهرة لغوية ضمن النص الأدبي .

« ومن ثم فإن مصطلح الأسلوبية يتجاوز مصطلح الأسلوب ، وإن كان مجالها يظل في دائرته ، وهي في الوقت ذاته تفتح لها مجالات أرحب وأفسح ، منها دراسة الإمكانات اللغوية التي تولد تأثيرات جمالية، ودراسة الركائز التي يعتمد عليها هذا التأثير الجمالي» .

وتأخذ الأسلوبيــة مفهوم « البحـث عن الأسس الموضوعية لإرساء علم الأسلوب» ، أي دراســة الأسلوب وهو جانب إنساني ذاتي دراســة علميـة موضوعـيــة ، وهي أيضا « دراسة الأسلوب عبر الانزياحات اللغوية والبلاغية في الكتابة الأدبية » ، فهي إذن تعنى بالجانب الفني والجمالي في النصوص الأدبية ، ما جعل "رومان جاكبسون" يعرفها بأنها بحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولا ، وعن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانيا .

أطلق الباحث فون درجابلنتس مصطلح الأسلوبية سنة 1875 ، غير أن من أصل لهذا العلم وأرسى قواعده هو شارل بالي سنة 1902 مثلما أرسى أستاذه فرديناند دي سوسير أصول علم اللغة " اللسانيات الحديثة "، غير أن آراء بالي أتت عليها أطوار من النقد والشك ونبذ الجانب العقلاني فيها ومن أبرز هؤلاء المشككين : ماروزو و كراسو و سبيتزر الذي أغرقت أسلوبيته في الذاتية وكفرت علمانية البحث الأسلوبي .

ثم توالت الدراسات بعد ذلك سعيا لإثبات شرعية الأسلوبية وعدها علما له مقوماته وأدواته الإجرائية وموضوعه ، وكان ذلك مع رومان جاكبسون و ميشال ريفاتير و ستيفن أولمان و دي لوفر و باختين ... وغيرهم من الباحثين .

إن أسلوبية شارل بالي مطلقة الوجود فهي تبحث في الخطاب الألسني أينما كان ، ولا تختص بالحدث الأدبي فحسب ، فهو لم يعمد إلى تقسيم اللغة إلى لغة الخطاب النفعي ولغة الخطاب الأدبي ، إنما رغب عن هذا التصنيف وذهب إلى تصنيف الخطاب إلى نوعين: ما هو حامل لذاته، وما هو حامل للعواطف والخلجات والانفعالات ، فاللغة تكشف عن وجهين وجه فكري ووجه عاطفي، ومعدن الأسلوبية – حسب بالي – هو « ما يقوم في اللغة من وسائل تعبيرية تُبرز المفارقات العاطفية والإرادية والجمالية ، بل حتى الاجتماعية والنفسية، فهي إذن تتكشف أولا ، وبالذات في اللغة الشائعة التلقائية قبل أن تبرز في الأثر الفني » .

غير أن جلّ رواد الأسلوبية قصروا عليها الخطاب الفني ، فجاكبسون خصها بأنها « بحث فيما يتميّز به الكلام الفني» ، أي دراسة الخصائص اللغوية التي تميز الكلام الأدبي عن غيره من الكلام ، أو الخصائص التي تجعل الكلام ذا أثر فني ، وميشال ريفاتير حدد مفهومها بأنها « علم يعنى بدراسة الآثار الأدبية دراسة موضوعية ، وهي تعنى بالبحث عن الأسس القارة في إرساء علم الأسلوب ، وهي تنطلق من اعتبار الأثر الأدبي بنية ألسنيّة تتحاور مع السياق المضومني تحاورا خاصا » ، بمعنى أنها دراسة لغوية تعنى بالبحث عن الأثر الفني في النصوص الأدبية .

وهو ما ذهب إليه بيار جيرو الذي يجعل الأسلوبية تتحدد بكونها البعد اللساني لظاهرة الأسلوب ، طالما أن جوهر الأثر الأدبي لا يمكن النفاذ إليه إلا عبر صياغته البلاغية ، فالأسلوبية تسعى إلى تحديد الخصائص اللغوية التي بها يتحول الخطاب من سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية الجمالية.

تعد الأسلوبية منهجا نقديا يمكن القارئ من إدراك انتظام خصائص الأسلوب الفني إدراكا نافذا مع الوعي بما تحققه تلك الخصائص من غايات وظيفية ، فهي وسيلة لدراسة الأدب في النقد الحديث ، لكنها لم تكن مقتصرة على دراسة الأدب إنما تدخل في مجال الدرس اللساني عامة ، فقد تقاطعت مع لسانيات دي سوسير ، وطور معالمها تلميذه شارل بالي في كتابه " مصنف الأسلوبية الفرنسية" Traité de stylistique Française مركزا على الأسلوبية النفسية والوجدانية والتعبيرية اللغوية ، ثم جاء مارسال كروسو ليحول الجانب الوجداني للغة إلى مفهوم جمالي ، ولحقه في ذلك بيار جيرو .

وهكذا يمكن إجمال القول في تعريف الأسلوبية بأنها : «الأسلوبية أو علم الأسلوب علم لغوي حديث يبحث في الوسائل اللغوية التي تكسب الخطاب الاعتيادي أو الأدبي خصائصه التعبيرية والشعرية فتميزه من غيره ، وتتعدى مهمة تحديد الظاهرة إلى دراستها بمنهجية علمية لغوية ، وتعد الأسلوب ظاهرة لغوية في الأساس، تدرسها ضمن نصوصها» .

فالأسلوبية منهج يعتمد اللغة باعتبارها وسيلة للكشف عن الخصائص التعبيرية والشعرية التي تميز الخطاب ، ويعد الأسلوب ظاهرة بارزة في الدراسات الأسلوبية ، بل إنه موضوع الأسلوبية ، لذلك وجب تحديد هذا الموضوع حتى يتأتى الفهم الجيد لعلم الأسلوبية .

2- الأسلــوب :

خلص عبد السلام المسدي في كتابه "الأسلوبية والأسلوب" إلى تحديد الأسلوب اعتمادا على ركائزه الثلاث : المخاطِب و المُخاطَب والخطاب.

أ- تحديد الأسلوب باعتبار المخاطِب :

يذهب أصحاب هذا الرأي إلى اعتبار الأسلوب معانٍ مرتبة في عقل صاحبها قبل أن يكون ألفاظا يجرى بها اللسان أو القلم « لذلك فكل أسلوب صورة خاصة بصاحبه تبين طريقة تفكيره وكيفية نظره إلى الأشياء وتفسيره لها وطبيعة انفعالاته » ، ولعل أصحاب هذا

الرأي قد تأثروا بنظرية بيفون في تحديد الأسلوب فهو عنده " الإنسان عينه " ومنهم شوبنهاور Schopenhawer فعرف الأسلوب بكونه ملامح الفكر، وتبناها فلوبير Flaubert ، فهو يعتبر الأسلوب وحده طريقة مطلقة في تقدير الأشياء ، وكذلك فعل ماكس جاكوب Max Jacib إذ قال: إن جوهر الإنسان كامن في لغته وحساسيته .

وعندما يتحدد الأسلوب باعتبار المخاطِب تصبح النصوص الأدبية انعكاسا لفكرة صاحبها وكذا صورة عن واقعه النفسي والاقتصادي والاجتماعي...

ب- **تحديد الأسلوب باعتبار المخاطَب:**

يتحدد مفهوم الأسلوب من خلال عدة عناصر أبرزها فكرة التأثير التي تستوعب عدة مفاهيم أبرزها الإقناع والإمتاع والإثارة ، فالأسلوب – حسب قيرو- «مجموعة ألوان يصطبغ بها الخطاب ليصل بفضلها إلى إقناع القارئ وإمتاعه وإثارة خياله» ، ويبين ريفاتير دور القارئ أو المخاطب في تحديد الأسلوب ، فيعرفه بأنه « إبراز بعض عناصر سلسلة الكلام وحمل القارئ على الانتباه لها بحيث إذا غفل عنها شوه النص وإذا حللها وجد لها دلالات تمييزية خاصة ، مما يسمح بتقرير أن الكلام يعبّر والأسلوب يُبرز» .

ويعود الاهتمام بالقارئ في تحديد الأسلوب إلى شارل بالي الذي يرى أن الأصل فيه هو إضافة ملمح تأثيري إلى التعبير يحمل محتوى عاطفيا .

ج – تحديد الأسلوب باعتبار الخطاب:

أشار بالي إلى القارئ في تحديد الأسلوب من خلال ملمح التأثير ولكنه لم يغفل الخطاب بل إنه « حصر مدلول الأسلوب في تفجر الطاقات التعبيرية الكامنة في صميم اللغة بخروجها عن عالمها الافتراضي إلى حيز الموجود اللغوي ، فالأسلوب حسب تصور بالي هو الاستعمال ذاته ، فكأن اللغة مجموعة شحنات معزولة ، والأسلوب هو إدخال بعضها في تفاعل مع البعض الآخر كما في مخبر كيماوي » .

ومن هذا المنطاق يتوجه الباحث في دراسة الأسلوب إلى النص ذاته بمعزل عن المؤلف والمتلقي للكشف عن الطاقات الشعرية والجمالية الكامنة في لغته .

ومن هذه المنطلقات يصبح الأسلوب مظهرا مهما في دراسة النص الأدبي ، وهو تأكيد على حضور الظاهرة اللسانية فيه ، غير أن الأسلوبية تلح على دراسة البعد الفني والجمالي الذي يميز النصوص الإبداعية .